لماذا نُؤْثر أدَبَ الحُزْن والمأسَاة على أدَبِ التسلية واللهَاة ؟

يرى بعض النقاد أن الكتب التى ترضينا وتمتعنا ونستريح إليها هى الكتب التى نوافق مؤلفها على وجهة نظره ، ونذهب فى الحياة مذهبه ، ونقف من مشكلاتها موقفه ، ولكنى لا أظن هذا الرأى صحيحا من كل نواحيه . فقد يروقنا كتاب من الكتب ، ويؤثر فى نفوسنا ، ونحن مع ذلك لا نوافق مؤلفه على وجهة نظره ، وأضرب مثلا لذلك رباعيات عمر الخيام ، فهى على حسب ظاهر معناها تعبر عن شعور رجل يائس من الحياة ، فهو لا يؤمل فيها خيراً ، ولا يكلف نفسه الجهاد من أجل الحق أو الخير أو الفضيلة ، وكل ما يريده هو أن يجلس فى ظل شجرة فينانة وإلى جانبه ديوان شعر وزق خمر ورغيف من الخبز ومحبوبته الحسناء ، ولو أنه عبر عن هذا الشعور فى النثر لأعرض الناس عن أدبه ، وأهملوا أمره ، وعابوا عليه هذا الإمعان فى الحسية ، ولكنه قد عبر عن هذا الشعور فى رباعيات بديعة النظم ، تصف الحالة النفسية المستولية عليه أبلغ وصف ، وتكشف عن الأسى الدفين الذى جعل اليأس يغلبه على أمره ، ويلون الحياة فى نظره باللون القاتم ، ويثنى عزيمته عن الجهاد الذى لا يدفع شراً ، ولا يجدى فتيلا ، ويبعثه على أن يقف من الحياة موقف المتأمل المشاهد ، لا موقف المكافح المجاهد .

ومن هذا القبيل لزوميات أبى العلاء المعرى ، فإن الاستمتاع بقراءتها شىء ، وموافقة أبى العلاء على مواقفه الفكرية فيها شىء آخر ، ولزوميات

أبى العلاء حافلة بالسخرية من الناس وآرائهم ومعتقداتهم ، والاستخفاف بالآمال البشرية ، واليأس من مطالب الحياة الإنسانية . ولا شك أننا نخالف أبا العلاء فى وجهة نظره ، والكثير من أفكاره ،ولكن تروقنا مع ذلك النغمة الحزينة اليائسة التى تسرى فى جوانب شعره ، وتعصف فى نواحى أدبه ، وتكشف لنا ما يتعرض له الناس من عثرات الحظ ، وصدمات القدر ، وأكاذيب المجتمع ، وأضاليل الأمانى .

ولا نزاع فى أن من أحب الكتب إلى نفوسنا هى الكتب التى نوافق صاحبها على وجهة نظره ، ونعجب بما يعجب به ، وننفر مما ينفر منه ، ولكن الكاتب الذى يثير فى نفوسنا العطف لأنه كشف عن آلام البشر نجد متعة فى قراءة كتبه ، وإن خالفناه فى نظرته العامة للدنيا ، وقد نستلذ قراءة الروايات الفكهة المضحكة أو القصص التى تصف لنا مطاردات اللصوص والمجرمين ، وحوادث القتل والاغتيال ، ولكن أمثال هذه الكتب قل أن تصبح ضمن كتب الأدب الباقية على الدهر ، وبعض الروايات الحديثة تكثر من وصف الحقائق النفسية ، حتى تكاد تكون مراجع فى علم النفس فى جميع ما وصل إليه ، والرواية التى يقوم الاهتمام بها على حالة العلم اليوم ليس من المنظور أن نجد من يعنى بقراءتها فى الغد . وكل الآداب العظيمة ملأى بالملاحظات النفسية ، وفى نظم كبار الشعراء وآثار الكتاب الممتازين حقائق نفسية قد كشفت وعرفت قبل أن يظهر علم النفس الحديث . والطبيعة الإنسانية هى المادة التى يتناولها الكاتب والشاعر والعالم النفسى ، ولكن بعض الكتاب الروائيين فى العصر الحاضر يتناولون الطبيعة البشرية بروح التحليل العلمى لا بروح الفن ، وهو طور من أطوار الأدب سيبلغ مداه ، وينتهى إلى غايته ، ويعقبه طور آخر .

وأحب الكتب إلى نفوسنا هى الكتب التى تثير فيها العطف العميق على

إخواننا البشر ، وتشعرنا الخوف والرهبة إزاء لغز الحياة وأحداث القدر ، ولذا نجد أن كتب المآسى أحب إلى نفوسنا من كتب الملهيات ، والمأساة أكثر تأثيراً فى نفوسنا من الملهاة ، وكأننا لا نستمتع بالكتب إلا إذا أثارت شجوننا ، ومست شغاف قلوبنا ، وكأننا يسعدنا أن نحزن ، والأدب الحزين هو الذى يثير نفوسنا ، ويفجر فيها ينابيع العطف والرحمة ، ولذا نجد شعر الغزل وشعر الرثاء أقوى أثراً فى نفوسنا من شعر المدح أو شعر الهجاء ، وذلك لأن شعر الغزل يصف لنا الآلام التى يعانيها المحبوب ، وروعات الفراق ، والإخفاق فى طلب السلو والنسيان ، وشعر الرثاء يصف لنا مرارة فقد الأعزاء ، وحيرة الإنسان أمام لغز الموت وغلبة الفناء .

ولقد حاول كثير من الباحثين والنقاد الكشف عن أسباب ارتياحنا للأدب الحزين وبخاصة أدب المأساة ، وذكروا آراء قد لا تكون حاسمة فى تعليل هذا الارتياح ، ولكنها على أى حال تلقى ضوءاً على نواحى هذه المشكلة ، فالكاتب البريطانى «مونتاج – Montague» يقول فى فصل له عن «مباهج المأساة» «فى تحقيق أجرى بمناسبة إطلاق أحد أفراد العصر الحديث الرصاص على نفسه فى أحد الفنادق بلندن ظهر أن هذا المنتقص لقيمة الحياة قد ذهب فى مساء اليوم السابق لوفاته إلى المسرح لمشاهدة تمثيل إحدى المسرحيات المأساوية ، وحينما ذكر اسم المسرحية ، قال المحقق «آه ، إنى أعرفها ، إنها رواية تمثيلية تبعث على الاكتئاب الشديد» . ويقول «مونتاج» إنه تبين بعد ذلك أن هذا الإنسان اليائس كان قد أنهك صحته ، وأضنى نفسه ، وفقد ماله ، وأنه طلق من زوجته ، وأصبح بلا مأوى ولا هدف . ولذلك لا يمكن القطع بأن المسرحية وحدها كانت سبب وفاته .

ويتساءل «مونتاج» قائلا : «هل يمكن القول بأن المأساة مهلكة وقتّالة

للرجل المتزن العقل ؟ وهل نلحق مسرحية «فيدر» و «ميديا» و «لير» بالعقاقير الضارة ؟»

يرى «مونتاج» أنه ليس هناك من يقر هذا الرأى ، وأن الناس لن تمسك عن ارتياد المسارح لتستمتع بمشاهدة تمثيل مآسى شكسبير وغيره من كبار كتاب المأساة ، ولكن لماذا تذهب الناس لترى ما أصاب الملك «لير» وتشاهد إخفاق «مارك أنطونى» ومصرع كليوباترا ؟

يعلل بعض الباحثين ذلك بأن المأساة تهز نفسنا وتفزعنا ، أو أنها تجعلنا نشعر بأن البشر لا حيلة لهم ولا قدرة أمام سطوة الأقدار ، وإدبار الحظ ، ووقوع المكاره ، وأنها ترينا كيف تهوى العظمة من عليائها ، وتنهار القوة ، وتصوح زهرة الجمال ، ويعتريها الذبول ، ويعصف الموت بكل أسباب الحياة . ولكن لماذا ترتاد الناس المسارح وتنفق من مالها لترى هذه المشاهد المحزنة التى تكشف ضعف الإنسان ، وترينا تقلب الحظوظ ، وسخرية الأقدار ؟ وإذا كنا نكره أن تطالعنا مناظر البؤس والشقاء فى واقع الحياة ، فلماذا نسعى إلى المسارح لنشاهد المآسى التى تثير الخاطر وتحرك كوامن النفس ؟

يرى «مونتاج» أن المأساة حقيقة تثير مشاعر الفزع والخوف ، وتجعلنا نحس الضياع والسقوط ، ولكن شعورنا بذلك فى المسرح يختلف الاختلاف كله عن شعورنا أمام الكوارث التى نشاهدها فى الحياة الواقعية ، ففى المسرح حينما نشاهد تمثيل المأساة تلم بنفوسنا هذه المشاعر ملطفة منقاة وخالية من الخطر ، والمآسى بموجب هذه النظرية تصقل نفوسنا ، وتشد من عزمنا ، وتشحذ قدرتنا على النضال ، وتقوى استعدادنا لملاقاة الخطوب ، ودفع الكوارث ، فهى بمثابة اللقاح الذى يكسب الجسم مناعة ترد غائلة المرض ، وتقضى على جراثيم الداء ،

وليست لها قسوة وقع أحداث الحياة الواقعية ، وإنما هى تشبه الخدش اليسير الاحتمال .

ولكن هذا التغيير ليس كافياً ولا شافياً ، فنحن لا نقبل على اللقاح للاستمتاع ، وإنما نتقبله لما يحدثه من أثر يأتى بعد انقضاء فترة من الزمن ، ونحن لا نذهب إلى المسرح لنلتمس متعة يأتى بها المستقبل ، وإنما نذهب إلى المسرح واثقين من أننا سنحظى بسويعات تسمو فيها نفوسنا ، ويصقل وجداننا ، وقد يطوف بنفوسنا طائف من الحزن ، وتطفر الدموع من عيوننا ، ولكننا مع ذلك نشعر بتسامى عواطفنا ، وتحليق عقولنا ، وصفاء خواطرنا ، وكأننا قد نقلنا إلى عالم آخر أصفى وأكثر إثارة للشجون والاهتمامات من عالمنا الرتيب المملول .

ويذكر « مونتاج » أن الفيلسوف الفرنسى « بيرجسون » كان يعلل الميل إلى المأساة بأنها تنقلنا إلى عالم من التفكير فى أحوال العصور الخالية ، وإننا تحت تأثير سحرها نحكم بأننا قد عدنا إلى مرحلة باكرة كانت فيها الأهواء الطبيعية العارمة التى نشاهدها فى المأساة تنطلق من عقالها بغير كابح قبل أن تطامن الحضارة من حدتها وطغيانها ، كما نرى فى المأساة ، ولكن الاعتراض الذى يمكن أن يوجه إلى هذا التعليل هو أننا لا نستطيع أن نجزم بأن الأهواء البشرية فى العصر الحاضر أقل حدة من أهواء الإنسان البدائى . والحروب والثورات كثيراً ما ترينا أن إنسان العصر الحجرى لا يزال كامناً فى أعماق الإنسان المتحضر ينتظر اللحظة المناسبة للانطلاق من عقاله ، ولم تخل فترة من فترات التاريخ من جرائم تدل على أن الأهواء البشرية لا تزال محتفظة بقوتها تحت ستار الحضارة ، ووراء قضبان العرف والتقاليد .

ولكن لننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى . فنحن نشعر بالعطف على من يفتح لنا مغاليق قلبه ، ويفضى الينا بدخائل نفسه ، ومؤلف المأساة قد استطاع

التغلغل إلى نفوس أبطال مأساته ، واستحضر فى نفسه أهواءهم وميولهم ، وجعل نفسه وسيلة لنقل مشاعرهم إلى وجداننا ، وقد استطاع تصوير مشاعر وأحاسيس يعجزنا تصويرها ، فهو أقوى منا إحساساً ، وأبرع تصويرا ، وهو يقدم لنا ثمرات هذا الشعور الدافق ، والتصوير البارع ، وكأنه يفضى إلينا بما خالج نفسه من أهواء ومشاعر ، وأرجح أننا بوعى أو بغير وعى نستطيب هذه الثقة التى تحرك فى نفوسنا بواعث العطف والمشاركة الخيالية ، وكل اقتراب عاطفى أو عقلى يدخل على نفوسنا السرور ، ويزيد ثقتنا بأنفسنا .

ومما يؤثر عن الشاعر الرومانى « هوراس » قوله : « استشعر الحزن والأسى إذا أردت أن تجعل مسرحيتك تفجر من عينى الدموع » وبطبيعة الحال ليس المطلوب فى المأساة أن نحزن على ما يصيب البطل حزننا على أقرب الناس إلينا أو أعز أصدقائنا ، وإنما المطلوب أن نستحضر صورة واضحة قوية مؤثرة لما يصيب البطل ، ويقول الناقد « مونتاج » إننا لكى نزود مدينة من المدن بماء من أحد الينابيع المائية ، فإن علينا أن نرفع المياه إلى قمة عالية فى برج أعلى من الأحواض جميعها التى تغمرها المياه ، وعقل كاتب المأساة يشبه هذا البرج ، والوقائع التى تنقلها إلينا رواية مأساوية لا تصل إلى نفوسنا وتؤثر فيها تأثيرها إلا بعد أن تتسامى فى نفس مؤلف المأساة ، فهو ببراعة فنه ، وقوة أدائه ، وبلاغة تعبيره ، ومهارة تصويره ، يرفعها إلى المستوى الذى يجعلها تؤثر فى نفوسنا ، وقد كانت قصة مأساة « هملت » معروفة قبل أن يتناولها شكسبير بعبقريته الفنية وأن يسمو بها ، ويوحى إلى نفوسنا مشاركته فى الشعور بهذا التسامى ، وأرجح أن هذه المشاركة فى التسامى بالشعور من أقوى أسباب ميلنا إلى أدب المأساة .

وقد عرف أرسطو المأساة[1] « بأنها تقليد لعمل جدى كامل بنفسه له شىء

(١) « قواعد النقد الأدبى » تأليف لاسل أبركرومبى وترجمة الدكتور محمد عوض محمد .

من الخطر والأهمية ، فى كلام ممتع بدرجة تتفق مع أهمية كل جزء من المأساة ، فى صيغة مسرحية لا فى صورة قصصية » .

وقد[١] اتهم أفلاطون الشعر ، وبنوع خاص شعر المأساة ، بأن له تأثيراً سيئاً يرجع إلى مقدرته على إثارة المشاعر ، ومن هذه الناحية وجه أفلاطون اتهامه للشعر ، وقد رد عليه أرسطو دون أن يذكر اسمه . وقد رأى أفلاطون أن بطل المأساة يستثير مشاعرنا بندب سوء حظه ، والشكوى مما ألم به من الخطوب والكوارث ، فى حين أننا فى الحياة نعجب بحق بالرجل الذى يحتمل الخطوب صابراً محتسباً دون أن يشكو أو يتوجع ، وكان الأجدر بالبطل أن يكف عن الإسراف فى الشكوى وإظهار الألم ، ويصبر ويتجلد ، فكيف نعجب ببطل المأساة وهو يسلك المسلك الذى يزرى به فى واقع الحياة ؟ وفضلا عن ذلك فإننا إذا رضينا لأنفسنا الاسترسال مع الحزن ضعفت سيطرتنا على مشاعرنا ، وعجزنا عن تحمل الآلام ، ومواجهة الأحداث الخطيرة ، وبذلك يصبح تأثير المأساة سيئاً ، لأنه ينال من عزيمتنا ، ويضعف قوة مقاومتنا ، ويحد من سيطرة العقل ، ويمكن العواطف من السيطرة علينا .

ويسلم أرسطو بأن المأساة تثير العواطف وتحرك الشجون وقد لا تخلو إثارة العواطف من الخطر ولكنه رأى أن المأساة لا تكتفى بإثارة هذه العواطف لذاتها ، وإنما تثيرها لتتطهر منها نفوسنا ، ولتتخلص من تأثيرها ، وتأمن سطوتها ، ويرى الناقد « أبركرومبى — Abercrombie » أن أرسطو قد اتبع فى رده على أفلاطون طريقة الطب اليونانى الذى كان يرى أن كل جسم يجوز استخراج ما به من مادة غريبة بأن يعطى مادة تشابهها بمقادير خاصة ، وأن هذا يشبه طريقة التطعيم ضد الأمراض فى الطب الحديث ، فالمأساة فى رأى أرسطو

(١) المصدر السابق .

فيها شفاء للنفس من الشعور بالخوف والرأفة ، والارتياح الذى نشعر به حينما نشاهد تمثيل المآسى مصدره التخلص من هاتين العاطفتين .

وقد تابع أرسطو فى هذا الرأى الشاعر الإنجليزى [١] «ملتن» وذكر فى مقدمته لمنظومته عن شمشون «ان المأساة هى أكثر أنواع الشعر نفعاً» وأيد رأيه بكلام أرسطو ، ونرى من ذلك أن وظيفة المأساة فى رأى أرسطو تشبه العلاج الطبى ، فشاعر المأساة ينقى نفوس الذين يشاهدون تمثيل مسرحيته ويردهم إلى العاطفة السليمة ، ويريح نفوسهم .

وينكر «أبركرومبى» على «أرسطو» صحة هذا التفسير ، وعنده أن المأساة حقيقة تؤثر فى النفس تأثيرا ممتعا ونافعا بأن تبعث فينا مشاعر قد تكون فى الحياة العادية مقلقة ومزعجة ، وقد يصحبها الألم ، ويتبعها الخطر ، ولكن المشاعر التى يثيرها أمامنا تمثيل الشر سواء كان هذا الشر سببه الرذيلة أو كان سببه الدمار والخراب والبؤس والشقاء تستبعد المأساة منها آثارها السيئة وتجعلها مفيدة مجدية ، وهى بهذا المعنى تطهر – فى رأى أبركرومبى – الشعور تطهيراً .

ويقول «أبركرومبى» [٢] ، تقوم المأساة بعرض مصائب الحياة ، ولكن بفضل وحدة موضوع المأساة تصبح حتى مصائب الحياة نفسها مثلا للعالم الذى نرغب فيه أشد الرغبة ، وهذا يفسر لنا اللذة التى نتذوقها فى المأساة ، فإن الأشياء التى تكون فى الحياة باعثة على الحزن تكون فى المأساة المسرحية باعثة على التنفيس ، ومع أنها قد تظل مثيرة للألم ، ولكن هنالك شىء آخر يضاف إلى ذلك ، وهذا الشىء هو الذى يجعل فى آلام المأساة خيراً لأنفسنا ، وهكذا نجد حتى فى وسط الشرور التى فى المأساة ذلك العالم الذى نلتمسه ونرغب فيه ، وبهذا المعنى يمكن أن يقال إن المأساة تحدث تطهيراً فى العواطف التى تثيرها ،

(١ ، ٢) المصدر السابق .

وإن لم يكن هذا هو التطهير الذى عناه أرسطو فإنه على كل حال مطابق لما قاله أرسطو كما أنه مطابق للحقائق .

وقد يبدو فى إعجابنا بالمأساة تناقض يبعث على التفكير ، فمن طبيعة الإنسان أن يتجنب الألم كما نتحاشى الوباء ، ولكن الواقع أن مشاهدتنا للمأساة لا تثير فى نفوسنا الشعور بالألم ، وإنما تحدث عكس ذلك ، وذلك لأن المأساة تصاحبها عقدة محكمة ، وشخصيات قد أتقن المؤلف تصويرها ، كما أنها مكتوبة بأسلوب أدبى لامع ، ويقوم بتمثيلها ممثلون يجيدون التمثيل ، وبذلك تزخر نفوسنا بالعواطف التى تؤثرها تلك العواطف ، التى تخرجنا من الحياة العادية المألوفة إلى حياة شائقة ، وإذا كانت المأساة تدخل الحزن على نفوسنا فإنها فى الوقت نفسه تقدم لنا صوراً من الحياة تسمو بنا ، وتقوى عزمنا ، وتزودنا بنظرات للحياة صائبة ، وتجربة نافعة ، وأحسب أن هذا مما جعل للمأساة مكانة مرموقة فى الأدب القديم والأدب الحديث .